أمسية الميلاد لدي الصعلوك

للكاتب الشيلى سلفادور رايس

بقلم الأديب سليمان على

كان يلبس بدلة سهرة أحمر اللون طويل الذيل ، وعلى أذنيه الشمروايز تقوم فى اتزان دقيق قبعة فخمة مريشة، وفى هذا اللباس الرسمى التاريخى كان يرقص فوق صندوق الموسيقى. وكان أمامه على الدوام حشد من النظارة ، من الصغار والكبار ، مجتمعين حول المعزف للتفرج عليه ، معجبين بالمهارة التى يتتبع بها أنغام الموسيقى المتغيرة ، فى نشوة من الضحك من حركاته المثيرة .

وكان لوجهه قدرة عجيبة على الحركة ، ولم تنجب الطبيعة مخلوقاً أشد دهاء فى تعبيراته الناطقة ، وله هذه الثروة من الحركات المضحكة ، وهذا الجسم الصغير العجيب المرن الذى تسكنه روح ذات حظ مماثل من المهارة والرغبة فى بعث السرور والبهجة .

وكانت الموسيقى ، وهى حياته الدائمة ، والحشد من النظارة ، كلها تجلب له التعة ، فاذا جذبه طفل من ذيلة مرة ، لم يغضبه ذلك أكثر مما يغضب من الشمس المتوهجة على حفاف الطريق ، أو من البقع التى يشحب لونها رويداً على ثوبه الأحمر الجميل. وكان سعيداً، وكان اسمه بيبى ، وكان بالطبع قرداً .

وفى بعض الأحايين تتحرك خاطره السوداوى من فرط الحنين لوطنه ، كما لو كانت بفعل الريح . فيسمع مرة أخرى أغنية وطنه الغاب، الصداح بالأطيار، ويرى الفهد ينساب بين الأجم، والتماسيح تزحف من الطين ، ويتنسم عبير الأزاهر الهائلة الذائبة التفتح فى الحرارة الدائمة. وحينئذ يحرك ذراعيه الطويلتين ، ويتذكر كيف كان يتسابق فوق أعالى الأشجار ، أو ينزلق برشاقة على جذوعها المعمرة ألف عام ، ويذكر فى قلبه وخزة تلك الكروم التى تنتظم كالدانتلا بين أصابع الغاب الهائلة .

بيدأن هذه الأشياء ما كانت تقلقه إلا فيما ندر؛ فلقد كانت الحياة جميلة ولم يكن مستعبداً كغيره من القردة. كان يسافر فى الطريق حراً مع سيده الذى كان صديقه كذلك . وإذا ما شعر بحاجة إلى الرياضة ، كان فى وسعه دائماً أن يرقص على المعزف . وكان رقصه حقاً نوعا من العبادة ، وكان القربان الذى يقدمه إلى ذكرياته عن الغابات الهائلة. ولم تكن لديه رغبة للعودة إليها إذ كان ذلك معناه فراق سيده، بيترسون الذى ، كان يعبده عبادة . ولم يكن بيترسون يمتاز بشىء ولكنه كان فى نظر بيبى يحتل مقام الإله . وكان مايزال شابا ، شديد النحول ، عيناه متعبتان زرقاوان ، وشعره طويل جميل يميل للصفرة ، ولحيته مهملة . وكان رث الملابس ، يمشى مشية بطيئة منتظمة ، تلك المشية المملولة التى يمشيها من يدرك أن رحلته لن تكون لها غاية .

وكانت كل الطرق تعرف هذين الصعلوكين : الرجل الذى يحمل الصندوق ، وبيبى الذى إما أن يكون قابعاً على كتفه أو دائم القفز فى محاذاته، وما كانا يمكثان طويلا فى مكان واحد، فكل مكان يبلغانه كان نقطة وصول ورحيل معاً . وفى الليل ينامان فى جنبات الطرق تحت الأشجار ، ويفضلان دائماً جوار المياه ، عند نهر أو على الأقل عند غدير صغير .

وأحيانا يكون الجو قائظا، وأخرى يكون قاراً . وكان بيترسون لا يأبه لتقلبات الطقس ، أما بيبى فكان يكره البرد ، وفى الليالى العاصفة ، الداوية بالرياح ، كان يزحف تحت غطاء سيده الصوف السميك الذى كان يأتى به ويرمقه من تحته بعينين قلقتين لامعتين.

وكان الرجل والقرد يفهمان بعضهما حق الفهم وكانا يتخاطبان بالإشارات البسيطة ، والكلمات ، والأصوات ، وكانا يشعران بصلة غريبة وهما محوطان بوحدة الحقول الهائلة ، ووحدة الأرض نفسها التى تفرقهما كثيراً ، كما يشعر الأخوان بأن كلا منهما ينتمى للآخر . وفى الظلام كان بيبى يمد يده الصغيرة الشعراء ، يلتمس الثقة وهو يدرك أنه واجد فى ملمس هذا الرجل النحيف الأبيض الأمان والحب .

كان بيترسون الإله ، وبقية العالم من رجال وحيوان، وشجر وحقول وسماء ، أشياء أبدعها من موسيقى معزفه . فاذا ما بدأت كان بيبى يرقص ، جاعلا رجليه تتبعان النغم فى دقة ، ياقى بكليته

إلى الحركات المعقدة التي تثيرها، ولم يكن ذلك بدافع العمل فحسب، بل بدافع من غريزته الحيوانية، بشعور مبهم لكنه عميق، نحو الإخلاص لسيده ونحو جمال العالم. وكان يرقص أحسن الرقص عند ما يكون أسعد حالا وأطيب نفساً، فيعبر بهذه الطريقة عن شكره وعن فرحه لكونه حياً يرزق.

وفى غسق يوم ذهبي، بلغنا إحدى القرى. وكانت قرية صغيرة ذات شارع واحد يمتد على منحدر التل، وتنتشر بين الأشجار بضعة منازل فحسب. بيد أنه قبل أن يضع بيترسون معزفه احتشد جمع من الأطفال حوله. وكانوا يهتفون بحبور لدى رؤيتهم بيبى الذى كان يمابئهم بحركات وجهه، ويأتى بحركات مضحكة، وكلما ازدادوا ضحكا ازداد سروراً. فلما صدحت الموسيقى، نغمة مكهربة، كان فى نشوة من الحبور، ومالت قبعته الريشة وهو يرقص، وأخذت ساقاه النحيفتان تتحركان بسرعة تزداد شيئاً فشيئاً.

وأخذ الحشد يزداد، وانضم إليه الآن بعض الكبار أيضاً، وكان بينهم شيخ حسن البزة يدخن غليونا كبيراً، ويطرق برأسه مع الايقاع الموسيقى، وكان يرمق بيبى بعطف وهو يرقص، وبيترسون وهو يدير يد المعزف كأنه رجل يبعث أمس قديما، ولما انتهى الدور الثاني، ألقيت بضع نقود فى قبعة بيترسون، ولكنها كانت قليلة، فأهل الريف فى كرمهم محتاطون. وبينما هو يتأهب للذهاب أقبل الشيخ ذو الغليون وحدثه قائلا «لى حفيد صغير مريض، ولأن الليلة عيد الميلاد، فإننى أرغب أن أقدم إليه متعة فريدة، فهلا قبلت أن تأتى وتلعب له؟ أقصد بجوار فراشه لكى يستطيع ان يرى القرد وهو يرقص؟»

فأطرق بيترسون موافقاً، فلم يكن يحب استعمال الكلمات إذا استطاع إلى ذلك سبيلا. وانطلقنا فى الطريق معاً — حتى بلغنا (فيلا) ذات سقف أحمر، تقوم بين دغل من الأشجار السامقة. ودفع الرجل باب السور، وتبعناه فى الممشى المبلط الملتف حول أحواض الزهر المتلألئة حتى بلغنا المنزل. ولما وصلا إلى السلم كان بيبى يهمهم بأصوات التطلع والتحمس؛ بيد أن بيترسون كان يمشى بعزم. ولكنهما ما كادا يجتازان عتبة البيت حتى وقف كالمأخوذ. فقد كان فى منتصف البهو الواسع الجنبات شجرة من أشجار عيد الميلاد مشرقة بالأنوار.

ووقف بيترسون ساكنا لا يريم، وطرفه معلق بالشجرة. لم تكن شجرة حقيقية، ولكنها صنعت بمهارة من الورق القوى والقماش، غير أنها كانت فى نفس بيترسون محملة بالذكريات كأنما ينبعث من أبرها صمغ الصنوبر من مسقط رأسه، وكأنها تميل أمام الرياح العاتية فى تلك الخلجان البعيدة، حيث الوجوه القديمة المحبوبة، وقد حدثته الشجرة بلغتهم، وهى تهمس فى رفق عبر السنين التي تفصل بينهم.

وكان بيبى يرتعش على كتفه فى تعاطف. ومع أن الشجرة المقلدة لم تكن تهمه فى شىء إلا أن طول الصحبة هيأ له سبيل النفاذ إلى قلب سيده، فأحس الآن بشىء غريب وحزين فى أعماقه؛ لذلك تعلق بالكتف المريض وأخذ يرتعش، وأحس بحنين إلى مسقط رأسه دون أن يدرك السبب.

«هلا تفضلت وأتيت من هنا؟» كان الصوت المتكلم متقدماً فى السن حاراً، وكانت صاحبته متقدمة فى السن ذات حرارة أيضاً. ورمقتهما بعطف وقالت ثانية «من هنا... هنا تماماً...»

وهز بيترسون نفسه وتبعها مجتازاً البهو ودخل من باب مفتوح. وكان فى الغرفة التى دخلاها صبى أبيض الوجه مستلق على سريره فى فتور. وأنزل بيترسون المعزف عن ظهره، وبدأ يدير الذراع. وتدفق النغم منه فى قوة غير منتظرة بينما ترددت على حوائط المنزل أصداء وأصداء.

كانت نفس الموسيقى، الفالس القديم الذى تردد مراراً وتكرارا. بيد أنه كان هناك اختلاف. وكان يبدو للصعلوك أن المعزف فقد إيقاعه الميكانيكي المألوف وأنه لبى نداء عاطفته، كأنه آلة صنعت لديه بجرأة... فشجرة عيدالميلاد تلك بثلجها الصناعى المقلد، وهذا المنزل الفسيح المضىء، والقوم المسنون الطيبون، والغلام الصغير، جميعهم، أدركتهم الموسيقى، وكانت هنالك أيضاً، الصور التى فى قلبه: الغابات الشمالية والوجوه واللغة التى كاد ينسى كيف يتكلمها.

وبينما كان يلعب كان بيبى يقفز فى سعادة، وجلس الغلام المريض فى سريره يصفق بيديه الضعيفتين، وأخيراً انتهى الدور، وسكت المعزف.

وكان بيترسون يهم برفعه إلى كتفه عند ما وجد نفسه المرة

الثانية ذلك المساء في غيبوبة من العاطفة ، قد هاجته وأمسكت به ، وقد توقف ذراعه في حركة صعوده ، وعيناه محملقتان ، فمن فوق رأس الشيخ كانت عينان في زرقة البحيرات الشماليـة ترنوان إليه ، عينان ساكنتان هادئتان ، مايئتان بحنان لا يحتمل .

وتقدمت امرأة طوال ذات حسن وجمال وهي تبتسم ، وربتت على رأس بيبي . وقالت إن الموسيقى كانت لطيفة جداً ، أفلا يمكنهم البقاء واللعب أمام ضيوفها قبيل منتصف الليل ؟ ويمكنهم في نفس الوقت أن يستريحوا ويأكلوا في المطبخ . وأطرق بيترسون إطراقة خرساء . وخرج دون أن يجرؤ على النظر مرة أخرى .

* * *

وبعد بضع ساعات ، حينما عادوا إلى البهو كانت الشجرة متلألئة كسماء صائفة بالليل . كانت مئات الشمعات تبرق على أغصانها ، وحولها لفيف من الناس يتكلمون ويضحكون كانوا يتنادون بالأسماء في ثقة كأنهم بذلك ينطقون بكلمة السر التي تسمح لهم بالدخول إلى وليمة الحياة . وكان الجو المرح ، مرح القلوب المؤتلفة ، يندفع كالغيم المتألق فوق رؤوسهم ، ولم تلمس بيترسون الومضة المتألقة ، وأحس أنه مطرود كليل . وظن لحظة أنه رأى العينين الزرقاوين اللتين أثرتا فيه كل هـذا التأثير ، ولكنهما غابا ثانية . وأنزل المعزف باحتراس في أحد الأركان وانتظر الإذن بالعزف .

وسرعان ما أعطاه الشيخ ذو الغليون الأشارة . وصحا بيبي الذي كان ممسكا بلحيته وهو نعسان يدافع الخوف من صوت الموسيقى وقفز على سطح المعزف ولكن لم يلق إليه أحد بالا . فقد بدأ الناس يرقصون ، رقصة الفالس على إيقاع الموسيقى ، التي كانت تنبعث في اضطراب من المعزف القديم ، وهم يغنون بصوت أعلى من صوته المتكسر ، في حبور وانشغال حتى أن أحدا منهم لم يدرك متى انقطع عن العزف . وتراجع بيترسون الى ركنه ، وهو من ارتباكه لا يستطيع معرفة السبيل الى الخروج .

ودوت في الغرفة أصوات أجراس كنسية آتية من بعيد ولكنها واضحة . وسكن القوم فجأة ، وأقبل الشيخ نحو بيترسون ووضع في يده حفنة من النقود ، وهو يشكره بأدب . فتمتم بيترسون يرد عليه ثم رفع معزفه إلى كتفه ، وأخذ بيبي النعسان في ذراعيه وكان على مقربة من الباب عند ما أبصر العينين الزرقاوين مرة أخرى وابتسمتا له من بعيد ، وابتسم الوجه جميعه في ثنيات تصاعديه ساحرة . وشدت يد بيترسون على مقبض الباب ، وشدت عظامها حتى أصبحت بيضاء اللون . وجمدت ملامحه وهي تعبر عن أسى بالغ ، وكان وراءها دموع لم تذرف . فهو الذي مضت عليه سنوات لا يعرف له سكنا يأويه ، ولا طريقا يفضله عن طريق . هو الذي الذي لم يكن له من رفيق سوى قرده الراقص ، أدرك فجأة أنه سوف يعرف الآن الوحـــدة الحقة . شجرة صنوبر شمالية معلق بها أنوار ، عينان جميلتان ، والمرة الأولى اللوعة الكاملة للفراق ... وأحنى رأسه ، بشكل مضحك . لقـــد كان يقول كلمة الوداع .

وفي الخارج ، كانت ظلال مكدسة وسكون وسماء معلق بها أنجم هائلة منداة . وأغلق الباب خلفه ووقف على رأس السلم وهو يرسل الطرف في قلب الليل . كان وحيداً ، وسيكون وحيداً ابدا . دان تنتظره أنوار في نهاية الطريق ، والطريق نفسه لا نهاية له .

ونزل أول سلمه ، ثم وقف فجأة . لقد فتح الباب مرة أخرى ، والتفت فـــرأى ، العينين الزرقاوين ، والقامة الطويلة الرقيقة ، وقد تحدد قوامها وهو يومض بين إطار الليل المظلم .

وتقدمت في تردد ومدت يدها . وقالت « سامحني . لقـد رأيت ... هنالك ... هل في الأمكان أن أمدلك يد المعونة بأي سبيل ؟ » وجمد بيترسون في مكانه برهة ، ثم أخذ اليد الممدودة اليه في بطء ؛ ولمسها بشفتيه ثم تركها تسقط ، ووقف الجسم اللامع ساكنا في فتحة الباب ، والضوء يكلل شعره كأنه ألسنة اللهب الصغيرة ، وانتزع نظرته بعيداً واسرع في النزول من السلم وأغلق الباب أخيراً ولكنه لم يبطىء من خطواته ، وكان يكاد يجري حين بلغ قارعة الطريق . والتفت ذراعا بيبي حول رقبته وقرعت اجراس الكنائس إيذانا بصلاة منتصف الليل

محمد سليمان علي

المهندس